خليل مطران

لست أحسبنى مبتكراً أو مغالياً إذا قلت إن الاحتفاء بشاعر عربى قضى نصف قرن أو يزيد وهو يشدو ، لهو حدث جليل القدر عظيم الدلالة من أحداث الأدب فى العالم العربى ، بل من أحداث اليقظة العربية كلها . فقد عاصر هذا الشاعر نهضة العرب فى عنفوانها ، وعب من النبع الأدبى الذى أجرى فى عروقها سورة البعث ، وعرف رجالها ، وخاض غمارها ، وشارك فى ذلك كله بقلم صادق عف حصيف ، فكان لها على الأيام لساناً يتغنى أحياناً ، ويتأسى أحياناً ، وينذر أو يرشد أحياناً ؛ فهو ابن قرون متطاولة من الأدب العربى ، قد احتشدت لتنتفض انتفاضة البعث فى نصف قرن ، وهو رائد قرون من آمال ومنًى لاتزال فى ضمير المستقبل ، ولكنها احتشدت أيضاً لتولد فى نصف قرن . فهذا الصدر النحيل الذى وصفه الشاعر نفسه بقوله :

الله فى صدر وَهَى ونقوّست منه العظامْ
خاوٍ كجوف الغار تملؤه المخاوف والظلام

قد الطوى على طيوف الماضى وثمنى المستقبل جميعاً ، فلما تفطرت فى فطرته السليمة أعارها من خياله أجنحة ومن بيانه قوة ، فاذا هى فى سماء الحياة شعر خالد .

بين نبع رأس العين فى بعلبك ، وأعمدة هيكل الشمس فى قلعتها ، رأت نور الحياة أول ما رأته ، هذه الفطرة العبقرية الشاعرة . وإذا لها من ذلك النبع الرقراق صفاء هو فى النفس صدق سريرة ، وإذا لها من تدفقه الهادئ من جوف الأرض ومن روعة تلك الأعمدة الجبارة ، عزيمة الجبار ولكن بغير صلصلة الحديد . ثم ترعرعت هذه الفطرة بين دوالى الكرم على منكبى « جارة الوادى » ، فتفتحت فيها أحلام الشباب وأزهار العقل ، فرقصت

وشدت ، ثم بلغت أشدها فى بيروت بين قنن لبنان العتاق ، وصفحة البحر الذى هرم الزمان ولم يهرم . وهناك تمرست أول ما تمرست بسورة الصراع الدائر الرحى يومئذ ، بين النفس العربية المنبعثة من طوايا التراث المسترد ، المتطلعة إلى الحق والحرية ، وبين قوى الظلم والجمود التى تحاول أن تلزمها الرغام . ثم شدّت رحالها إلى الغرب ، إلى باريس التى كانت يومئذ مؤئلا لفئة من أحرار العرب . فلم تكد تلقى عصا الترحال ، حتى وقفت حيرى حيال قرار خطير . ولكن حيرتها لم تطل . وما هى إلا هنيهة من الزمن ، عانت فيها عذاب الكفاح النفسى ، حتى حزمت أمرها على أن تختار . وقد كانت مخيرة فيما تأخذ وفيما تدع : أتغرب كما كانت تنوى أن تفعل ، إلى حيث يكفل لها العيش الرغد والراحة بل الثراء ، أم تشرق فتعود إلى ميدان النضال، وليس فى العودة من شئ مكفول سوى شدائد النضال وآلامه ! ولعل أنصع دليل على الخير المركب فى هذه الفطرة ، وعلى قوة المنى التى كانت تجتاح النفس العربية فى ذلك الحين ، أن فطرة الخليل اختارت أن تشرق ، مؤثرة غمرة الجهاد والكفاح ، على أفياء الثروة والراحة . وكذلك بت الفتى وهو فى باريس ، وعزم أن يعود إلى مصر ، مشيحاً بوجهه عن الشق الغربى من كرة الأرض . فلم يكد يطأ أرضها ، ويحس بعبق التاريخ يجرى فى عروقه مرة أخرى ، حتى انطلقت فطرته الشاعرة على سنتها ، وإذا الآثار المنطوية فيها من بعلبك وزحلة وبيروت ، قد أخذت تمتزج بها وتشد من أزرها آثار الجهاد المصرى الرانى إلى نور الحرية والكرامة ، وآثار الجهاد العربى المشوق إلى بعث يعيد عصر المأمون وهارون الرشيد ، وآثار الحضارات القديمة، التى قامت فى هذا الوادى آية تجلو أسرار التاريخ النابض بالحياة المتجددة على الدهور .

وعلى أن خليل مطران كان صحفيا مبدعاً ، فى العقد التالى من سنى حياته وعلى أنه اشتغل بشؤون المال والاقتصاد والزراعة ، فان فطرة الشاعر العبقرى فيه وقفت مرة أخرى ، كما وقفت فى باريس من قبل ، حيال قرار خطير : أتجعل قبلتها فى الشعر أن تجارى الفحول من شعراء العربية أم تجعل قبلتها أن تتمثل خير ماجاء به الفحول . ثم أن تنطلق فى آفاق الحياة الرحيبة ، حتى تتفتح للشعر العربى أبواب الآداب العالمى ، يأخذ منه ويعطيه سواء

بسواء ؟ وفى البيان الموجز الذى صدر به الخليل « ديوان الخليل » ، قال :

«عدت إليه وقد نضج الفكر واستقلت لى طريقة فى كيف ينبغى أن يكون الشعر ، فشرعت أنظمه لترفيه نفسى حيث أتخلى ، أو لتربية قومى عند وقوع الحوادث الجلى ، متابعاً عرب الجاهلية فى مجاراة الضمير على هواه . . . موافقاً زمانى فيما يقتضيه من الجرأة على الألفاظ والتراكيب . . . وذلك مع الاحتفاظ جهدى بأصول اللغة وعدم التفريط فى شئ منها إلا ما فاتنى علمه... ولم أكن مبتكراً فيما صنعت ؛ فقد فعل العرب فى كل زمان قبلى ، مالا يقاس إليه فعلى . . . فأصرح غير هائب أن شعر هذه الطريقة — ولا أعنى منظوماتى الضعيفة — هو شعر المستقبل لأنه شعر الحياة والحقيقة والخيال معاً ... »

وما كان النزاع الذى دار فى نفس الخليل فى الحالين ، نزاعاً يسهل الفصل فيه . وكان الاختيار الذى آثره ووطن العزم عليه ، غير مايؤثره السواد من الناس . وليس هذا بالشئ العجيب ؛ فالخليل من الصفوة فى كل عصر وفى كل قبيل . والحياة منذ كانت الحياة ، لم تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام، إلا بفضل القلة المصطفاة من الأحياء التى تأبى المتابعة والمطابقة التامة ،وتخرج على الكثرة التى قلما ترضى عنهما بديلا . فتسير هذه الفئة القليلة بالحياة صعداً يستحثها ناموس كناموس الجاذبية لا يردّ ، يأتيها نداؤه من وراء حجب الغيب ، فتلبى النداء راضية مختارة . وهذا فى نظرى سر العظمة فى حياة الخليل وفى شعره . فقد كان فى وسعه أن يغرب وأن يثرى ، ولو فعل لكان خليقاً أن ينظم شعراً حسناً ، ولكنه اختار أن يشرق ، فاذا حياته قد فنيت فى حياة الشرق العربى ، أو هى اتسعت حتى تضم حياة الشرق العربى بين جوانحها . وكان فى وسعه أن يجارى الفحول أو يحاول أن يجاريهم ، ولو فعل لكان خليقاً أن يستعيم له فى بعض الأغراض قصائد أو مقاطع من قصائد تعد فى الطبقة الأولى ، ولكنه اختار أن ينظم شعراً «ليس ناظمه بعبده» ، على مايقول ، وأن يفتح للشعر العربى باب المستقبل حتى يكون « شعر الحياة والحقيقة والخيال معاً » ، وإذا هو بما قد اختار ، رائد له من مجد الرواد فضل الإقدام على المجاهل يرفع الستار عن مناكبها .

ولو طلب المال فى الغرب ، وأوتى ما طلب ، لكان فى وسع العالم أن يسلبه ما آتاه . ولو سعى وراء المتعة فى الشرق أو فى الغرب ، وناالها ، لكان نيل

المتعة كفيلا فى حد ذاته باضمحلالها . ولو حاول أن يجارى الفحول واستقام له ما يريد ، لما خرج عن أن يكون واحداً من عشرات أو من مئات ، يحذو حذوهم ويجرى على غرارهم . ولكنه أبى كل هذا ، وأركب النفس مركباً خشناً صعب المراس ، ولو هو لم يفعل سوى أن يحزم أمره على هذا الاختيار فى كلا الحالين ، ولو هو لم تواته فطرته الشاعرة العبقرية على آيات وروائع ، لكان حسبه فخراً أنه اختار كما اختار . فليس فى وسع أحد أن يسلبه فضل ما فعل .

ولذلك حين أعود إلى أوراق ديوان الخليل ، التى بليت بين يدى منذ بدأت أطالعها منذ ربع قرن أو أكثر وأقرأ فيها فى قصيدة المساء :

عمرين فيكِ أضعت ، لو أنصفتنى ... لم يجدرا بتأسفى وبكائى
عمرَ الفتى الفانى ، وعمر مخلدٍ ... ببيانه لولاك فى الأحياء
فغدوت لم أنعم كذى جهل ، ولم ... أغنم كذى عقل ضمان بقاء

أقول : ليس هذا المهرجان الذى حجت فيه العربية إليك ، ولا هذا التكريم السامى الذى أسبغه المليك عليك ، سوى آية واحدة من آيات البقاء التى كتبت لشعرك ، مادام فى الدنيا عرب يتلون سورة أو يترنمون بقصيد .

والشعر سلّم يرتقى الناس عليه من القريب إلى القصى ، ومن المدرك إلى الخفى ، ومن الحياة التى أسدل على وجهها برقع كثيف ، إلى الحياة فى جوهرها المطلق الرحب المنبسط أمام وجه الشمس . والشاعر يصنع لنا هذا السلّم من خيال يرى ما لا نرى ، وشعور يحس ما لا نحس ، وفكر يدرك الحقيقة المستترة وراء ظواهر الاشياء . وأنت تقف إلى جنب الشاعر فلا ترى مأساة الدهور فى الوودة الذابلة ، ولا صراع الحقيقة أو الظلم أو الفضيلة ، فى سيرة الرجل المسجى أو الجنين المجهض أو الشمس الغاربة ، ولا الآمال والمنى التى تموج فى صدور خلائق هى « عد الرمال » . حتى إذا نطق الشاعر رأيت بعينه ، وسمعت بأذنه ، وأدركت بعقله ، وإذا ستار من الأستار المسدلة على روائع الكون ومعجزات الحياة ، قد رفع قليلا فرأيت مشهداً يفتن الألباب ، وألفيت ضياء يدنيك قليلا من فهم الحقيقة .

شعر الخليل حافل بآيات رائعة على هذه الأغراض التى ينشدها الشعراء ، ولا تتم نعمتها العلوية إلا لكبارهم .

مختارات من شعر مطران

فى الكفاح

ليس بالكفء لعيش طيّبٍ ... كلُّ من شقَّ عليهِ العيش حرّا

ليت البلاد التى أخلاقها رَسَبت ... يعلو بأخلاقها تيّار طغيان
النار أسْوَغُ وِرداً فى مجال عُلىً ... من بارد العيش فى أفياء فينانِ

وَلكنَّ قوماً يذودون عن ... حقيقتهم من يد المعتدى
ويدفعهم حبُّ أوطانهم ... ويجمعهم شَرَفُ المقصد
وإن غالبتهم جيوش المنايا ... تغالَبْ ، وإن جاهدت تُجْهِدِ

فى الدعوة إلى اليقظة

نمنا على جهل وقد ... عاش الكرام ونحن لم
فإذا انقضتْ آجالنا ... فمن الرقاد إلى العدَمْ
وإذا بُعثنا بعدها ... فكأنها رؤيا حُلم

لا يعصم الأمم الضعيفة فطرةً ... إلا فضائلُ بالتجارب تكسب
فتكون حائطها المنيعَ على العدى ... وتكون قوتها التى لا تغلب

ولم أرَ شيئاً كالفضيلة ثابتاً ... نَبَتْ عنه آفات البلى والمعاطب

فى صور الطبيعة والنفس

يا للغروب وما به من عَبرةٍ ... للمستهام ، وعبرة للرائى
أوليس نزعاً للنهار وصرعة ... للشمس بين جنازة الأضواءِ
أوليس طمساً لليقين ومبعثاً ... للشك بين غلائل الظلماءِ
أوليس محواً للوجود إلى مدى ... وإبادة لمعالم الأشياءِ
حتى يكونُ النورُ تجديداً لها ... ويكون شبه البعث عود ذكاءِ

وكم فى فؤادى من جراح ثخينةٍ يحجّبها بُردايَ عن أعين الناس
أرى روضةً ، لكنها روضة ذوت وأصغى وما فى مسمعى غير وسواس
وأنظر من حولى مشاةً وركّباً على مُزجَيات من دخانٍ وأفراس
كأنى فى رؤيا يرفّ الأسى بها طوائف جنٍّ فى مواكب أعراس

أنا الأسد الباكى أنا بجبَلُ الأسى أنا الرمسُ يمشى دامياً فوق أرماس

وكان يهمُّ الصبحُ أنْ يتطلعا وينتضَّ أزرارَ السماء ليسطعا
ويرفعَ ثوبَ الليل عنهُ ليخلعا فلم يطوِ منهُ الذيلَ إلا وقد وعى
دماً طاهراً أجراهُ إثم فتى نذلِ

وإلى ذلك كله كان قلم الشاعر فى يد الخليل مزماراً يوقع عليه ألحان الوفاء لمن يرحل من لداته ، حتى صار ديوان مراثيه صفحة مشرقة من تاريخ هذه الحقبة الحافلة بالعظماء .

إلا أننى أحس أننى أظلمك أيها الخليل ، حين أقسّم وأبوّب وأستلّ من شعرك أبياتاً من هنا ، وأبياتاً من هناك ؛ فما كان البيت فى قصيدك غاية تحدو إليها ركائبك ، ولا كان المعنى الحاصل فى شعرك منفصلا عن المعنى العام الذى يضم الحياة كلها . ولكن ما حيلتى ! فلا بد لى من شئ كالموشور يحل ذلك الضياء المتوهج المنبعث من فطرة شاعرة عبقرية . مازال سناها يغمر العالم العربى منذ نصف قرن أو يزيد .

فانفحنا أيها الخليل ، مد الله فى عمرك ، من جديدك ، أو انشر علينا من قديمك شعراً نسمو به فوق ذواتنا الصغيرة إلى مسابح النجوم .

« تالله ما ظُلَلُ الغمام معاقلٌ تَنْأى عليكَ ، ولا النجوم حصون»

فؤاد صروف